ابراهيم باشا فى حروبه

للأستاذ كمال السيد درويش

لقد كان ابراهيم باشا قائداً حربياً ممتازاً ، كان ميالا للحروب منذ نشأته المبكرة ، وكان كما وصفه معاصروه : « شديد الشغف بالقتال ، ولا يطيب نفساً إلا فى جو الحروب » ، جو المعارك الطاحنة والمواقع الفاصلة ، ذلك الجو المملوء بالعمل والنشاط والحركة اضطلع ابراهيم بالحملات التى أسندت إليه منذ شبابه ، وكان النصر حليفه فى كل ميدان من الميادين التى خاضها . توجه إلى قتال الوهابيين ، وكانوا عدواً صعب المراس شديد الحماس ، يسيطر على شبه جزيرة العرب ، قد أسكرته خمرة الانتصار على جيوش والى العراق ، كما أسكره التحرر من حكم العثمانيين ، وكان عجز السلطان عن إخضاعهم من عوامل بعث الثقة فى نفوسهم وتقوية إيمانهم بمذهبهم الجديد حتى أصبحوا يرون أنفسهم على الحق ، والعالم الإسلامى كله على الباطل !

هذا هو العدو الذى توجه ابراهيم لقتاله ، ولقد نجح فى إسدال الستار على تلك الحركة الوهابية ، وعلى تلك الدولة الفتية ، بعد أن استولى على عاصمتها الدرعية . وعاد قاهر الوهابيين وحاكم بلاد العرب إلى مصر لتتلقاه بأهازيج النصر والفخار .

ونظر ابراهيم فوجد محمد على قد أسند إلى الكولونيل سيف مهمة إنشاء جيش حديث ، فلا يجد غضاضة ، وهو القائد المظفر ، فى الانضمام كجندى عادى إلى الجيش الحديث ، ويتجه الكولونيل سيف فى لهجة الآمر إلى أن مكانه — لقصر قامته — فى آخر الصفوف لا فى أولها . ويدرك ذلك ابراهيم فيطيع أمر رئيسه فى الحال .

ويذهب إلى السودان بعد ذلك ليساعد أخاه اسماعيل فى إكمال فتحه ، ثم يحول المرض بينه وبين إتمام مهمته ، بعد أن وصل إلى قرب نهر السوباط فيعود إلى مصر من جديد .

وتشتد الثورة فى اليونان ، ويعجز السلطان عن إخضاعها ، فيلجأ إلى تابعه القوى محمد على باشا الذى يسند قيادة الحملة إلى نجله ابراهيم .

وكانت ثورة اليونانيين كثورة الوهابيين ، كلاهما كانت تلهبه العقيدة ويشعله الحماس . كانت الحرية أنشودة الثوار ، بل أنشودة الشعوب الأوربية بأسرها ضد الحكومات الرجعية التى كانت تجثم فوق صدرها . ولذلك كان العدو الذى واجهه ابراهيم فى بلاد اليونان كالعدو الذى واجهه فى بلاد العرب مستميتاً فى كفاحه ، مستبسلاً فى نضاله ، مضحياً بكل ما لديه ، ومع ذلك استطاعت الجيوش المصرية تحت قيادة ابراهيم أن تتغلب على قوات الثوار بالرغم من تأييد الشعوب الأوربية لها .

ويعود ابراهيم من حرب اليونان ليستعد لخوض أعظم معركة فى كفاحه الحربى الطويل ، وليسطر أروع الصفحات لا فى تاريخه العسكرى فحسب ، بل فى التاريخ العسكرى خلال القرن التاسع عشر .

عاد ابراهيم ليخوض الحرب ضد جيوش السلطان نفسه ، فتسقط على يديه مدينة عكا الحصينة ، ثم يهزم العثمانيين بعد ذلك فى دمشق ، ثم يستولى على حمص وحلب ، ويقضى على الجيش العثمانى فى بيلان ، ثم ينتصر انتصاراً حاسماً فى قونيه ، ويتوغل فى بلاد الأناضول حتى يصل إلى كوتاهيه ، وينزل السلطان مضطراً على شروط الصلح ، وعند ذلك تبدأ عبقرية ابراهيم كإدارى فى الظهور ، فيلتفت إلى بلاد الشام لتنظيمها من جديد ولانتشالها من الفوضى والانحلال .

ويعود السلطان إلى دس الدسائس وتحديه ، فيتقدم ابراهيم إلى جيش السلطان ، ويقابل قائده حافظ باشا فى نصيبين ، وتبدأ الوقعة ولا تستمر سوى ساعتين حتى كان القائد العثمانى قد ترك مع جيشه إلى الفرار .

هذه نظرة عامة نلقيها على حياة ابراهيم التى ملئت بالكفاح والنضال ، حتى إذا أنعمنا النظر قليلاً راعتنا عبقريته الحربية وأيقنا أنه لم ينجح هذا النجاح إلا بعد أن اتخذ له من الخطوات ما هو كفيل بتسجيله .

لم يحارب ابراهيم أعداءه فقط ، بل كان وهو فى بلاد العرب يحارب ضد الصحراء القاسية بما فيها من جبال وعثاب وكثبان وأعاصير طالما اقتلعت الخيام فتركت الجند فى العراء يصلون حر نهارها الشديد وبرد ليلها القارس . وفى بلاد اليونان حارب ضد الجبال المرتفعة والأنفاق الضيقة والوديان العميقة ، والعدو خبير بذلك كله متعصم به وبالجزر المنتشرة فى ذلك البحر ، تحيط بها أمواجه فتحميها وتحميه وتنتشر بينها قراصنته حتى تترصد العدو

لترديه . وكذلك حارب في هضبة الأناضول وفي فصل الشتاء ، وحدثت موقعة فونيه ودرجة الحرارة فوق الصفر بقليل .

كان ذلك في الحادي والعشرين من شهر يونية سنة ١٨١٨م حين كان أحد الجنود يوقد النار فأطارتها العاصفة على معسكر الجيش فاندلعت إلى خيمة منصوبة على قرب من مستودع الذخيرة فاحترقت الخيمة وامتدت نارها إلى المستودع فانفجر لساعته ونسف ذلك الانفجار من القنابل والرصاص ما ذهب بنصف ذخيرة الجيش ، ودب الذعر ، واختل النظام ، وكاد الموقف الرهيب يودي بالحملة كلها . فالجيش يحاصر الدرعية عاصمة الوهابيين ، وصحراء نجد تحيط به من جميع الجهات ، والعدو يتنبه على صوت الانفجار فيتهيأ لانتهاز الفرصة وتجديد الهجوم .

ولكن ابراهيم يقابل خبر الكارثة وحرب الطبيعة بصدر رحب وثبات عجيب ، وينظر لمن حوله من القواد والجند نظرة الواثق من الفوز ، المتأكد من النصر ، ثم يقول في صوت هادئ عميق : « لقد فقدنا كل شيء ، ولم يبق لدينا إلا شجاعتنا فلنتدرع بها ، ولنهاجم العدو بالسلاح الأبيض » !

وكان ذلك في يوم ١٧ مايو سنة ١٨٢٥ حين تمكنت بعض سفن اليونانيين من الاقتراب من ميناء مودون حيث كانت بعض سفن أسطول ابراهيم راسية ، واستطاعت الحراقات اليونانية خلسة إشعال النار في سفينة من تلك السفن المصرية ، وكانت الريح شديدة ، فاندلعت النار إلى باقي السفن ، وتعذر إطفاؤها ولم ينج بحارتها إلا بعد عناء شديد ، وخسر ابراهيم معظم سفنه في هذا الحريق ، وامتدت النار إلى المدينة ، فتناولت مخازن البارود فنسفتها أيضاً ؛ ومع أن ابراهيم كان يشدد حصاره على المدينة في ذلك الحين ، فقد تقبل ضربة الطبيعة وغضبها بنفس الروح التي تقبل بها ضربتها أمام الدرعية ، واستمر يقاتل أمام أسوار مودون حتى استولى عليها .

أما بعد ، فهذه بعض المواقف التي تجلى فيها ثبات ابراهيم أثناء حروبه ، ذلك الثبات الذي كان له أكبر الأثر في تغيير مجرى الحوادث وإظهار عبقرية ابراهيم كقائد حربي ممتاز .

كمال السيد درويش
مدرس بمدرسة الرمل الثانوية
وعضو الجمعية التاريخية الملكية باسم فاروق

اسألي سحرك ..

للأستاذ محمود حسن إسماعيل

آه من لحن على نهديكِ لم أعزفهُ آه !
شاردٌ عن سحر أوتاري كأحلام الحياه
كلما أطلقتُ روحي خلفهُ في الصدر تاهْ
وغنيه .. واسمعي مثلي الأغاني من هواه
ودعيني في الليالي السُّود أمشي في خُطاه
واتبعيني ، فأنا دربٌ بعيدٌ منتهاهْ

آه من طير على جفنيكِ لم يهدأ بأيكِ
ضاربٌ في أفق الأحلام ، مظلومٌ لديكِ
كلما همَّ ، لواهُ صائدُ السِّحر إليكِ
اتركيه كيفما شاء يُغنّي في يديكِ
واتركيني أتلاشى نغمةً في جانبيكِ
أخطف السرَّ وأمضي طائراً سرٌّ عليكِ

آه من ليلٍ رهيبٍ في خيالي من ملالِكْ
مُترعٍ بالشكِّ والأوهاد في جنبيَّ حالكْ
خيمت منه معانٍ لاهناتٍ في خيالكْ
أسأليها ، فهي تدري ما الذي طاف ببالكْ
واسمعيها ، حُرَقاً تنوي على ذكرى وصالكْ
يوم كنا في سبيل الحب نشتاق المهالكْ

آه من نهرٍ بأعطافكِ مرهوبِ النواحي
رحتُ في أمواجه ألتقي من الشوق جراحي
وأنادي الرَّجع ، لو هبت بناي وصباحي
وصلاةٍ لشراعي فوق هاماتِ الرِّياحِ
اتركي الزَّورق يجري فيه نشوانَ الجناحِ
ودعيه سابحاً ما شاء في تلك البطاحِ

تسأليني ... لمَ لمْ يشغلك عن حبي شاغلْ ؟
اسأل الطير ... علامَ الأيك في جنبيه هادلْ ؟
واسأل النهر ... علامَ الموجُ في شطيه زاجلْ ؟
واسأل بحركِ من أجراهُ في قلبي جداولْ ؟
واسأل الماضي فما زالت به تتلى المراجلْ
واسأل نفسكِ من أغرى على الحبِّ المعاولْ